صقلية
أيام الحكم العربي الإسلامي

عبد المجيد علوشي
طالب باحث بسلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الأول بوجدة، المغرب

مقدمة

منذ نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتأسيسه الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة، بدأت الدعوة الإسلامية في الانتشار شرقا وغربا، شمالا وجنوبا. وقد تختلف الآراء وتختلف وجهات النظر لدى المؤرخين والدارسين حسب توجهاتهم، لكن ما يمكن تأكيده هو أن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت نقطة فارقة في تاريخ المنطقة بشكل خاص وفي العالم بشكل عام، وأن الإسلام أحدث ثورة اجتماعية وثقافية وحضارية منحت العرب دولتهم. هذه الدولة التي امتدت من شرق آسيا إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس غربا حيث كانت تعيش شعوب وأجناس مختلفة اعتنق الأغلبية منهم الإسلام، وأصبحت اللغة العربية لغتهم الأولى التي يكتبون ويتحاورون بها. وهذا بفضل الرجال الذين عاهدوا الله على نصرة هذا الدين، وذلك بالتخطيط السليم والثقة غير المتناهية في الله تعالى، والبذل والتضحية والتعب والجهاد والمجاهدة والأخذ بالأسباب الصحيحة، والتوكل على الخالق سبحانه وتعالى. وحين نعترف بهؤلاء الشرفاء لابد أن نجعل لكل واحد منهم إطارا تذكاريا يليق بشخصه الكريم وننوه بهم في كل محفل، كيف وقد نوه ربنا سبحانه بفضلهم ومكانتهم وخشيتهم له فقال سبحانه عز وجل: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"[1] وقال أيضا: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"[2] وقال جل من قائل: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير"[3]. فلعلمائنا المخلصين العاملين، الذين جعلوا من أنفسهم حراسا لدين الله، حافظين لعهد نبيهم حتى يبلغوا عنه ما بلغهم بكل أمانة وإخلاص. نتوجه بخالص التقدير ووافر الإجلال وعظيم العرفان وصادق الدعاء لرب العزة أن يجازيهم خير

[1] - سورة فاطر الآية 28.
[2] - سورة الزمر الآية 10.
[3] - سورة المجادلة الآية 11.

الجزاء، وأن ينفع الأمة الإسلامية بعملهم وجهدهم. وإنه لحري بنا أن نجعلهم في المكانة اللائقة من الاحترام والتقدير، وأن نلتزم توجيهاتهم، وننهل من العلوم الضخمة التي ورثناها عنهم، ونذود عن كرامتهم، ونسفه من انتقص من شأنهم أو حاول التقليل من مكانتهم، فهم الموقعون عن رب العالمين.

لقد أعجبتني فكرة التعريف بأعلام الأمة الإسلامية بعدما اطلعت على كتاب "أعلام من الغرب الإسلامي" للأخ الدكتور عبد العزيز فارح والذي نصحني بالتعريف بأعلام صقلية علما منه أنني عشت بإيطاليا لعقدين ونصف من الزمن.

وراقتني الفكرة أكثر لما اكتشفت أن بعض المستشرقين الإيطاليين عندما كتبوا عن الحقبة الإسلامية لصقلية اضطروا إلى الرجوع إلى المصادر الإسلامية لأنهم لم يجدوا أمامهم سواها.

لقد عرفنا نماذج كثيرة من هؤلاء العلماء الذين زهدوا في الدنيا الفانية فنجوا ونأوا بأنفسهم عن الضغائن والتحاسد والتنافس والتكالب على الجاه والمال وغيره من المهلكات. ولعلي بهذه المساهمة أستفيد وأفيد وأشارك إخواني طلاب العلم بما يخدم صالح الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم.

الفصل الأول: تاريخ صقلية.

المبحث الأول: صقلية قبل الفتوحات الإسلامية.

عرفت جزيرة صقلية الوجود البشري منذ عصور ما قبل التاريخ، وهذا ما أثبته علماء الآثار باكتشافهم للرسوم والأدوات في الكهوف والمغارات. ويقال إن صقلية استقت اسمها من إحدى الشعوب التي وفدت إليها منذ القرن الثامن قبل الميلاد وهم الصقالبة الذين أنشأوا فيها مستوطنات لهم، وكانت تعرف قبل ذلك باسم تريناكريا TRINACRIA ومعناها الأرض المثلثة الشكل.

ونظرا لأهمية موقعها الجغرافي فقد لعبت صقلية دورا هاما في الأحداث التاريخية التي عرفتها شعوب البحر الأبيض المتوسط. لقد أسس تجار البحر الفينيقيون مراكز تجارية ومستعمرات على طول ساحل المتوسط في أثناء بحثهم عن التجارة وتبادل السلع، ومنها صقلية وأشهر المستعمرات الفينيقية فيها، (ليليبة) و (دربان) و (بالرم). بينما أنشأ اليونانيون مدينة سيراكوزة في القرن الثامن قبل الميلاد.

وظل تاريخ صقلية مدة عصور يدور حول النزاع بين اليونانيين من جهة الشرق وبين الفينيقيين بزعامة قرطاجة من جهة الغرب. وفي القرن الثالث قبل الميلاد أصبحت جزيرة صقلية مجال تنافس بين الرومان الذين أصبحوا أسياد إيطاليا الوسطى والجنوبية، فاتجهت أطماعهم نحو مضيق مسينا والشواطئ الشرقية لصقلية، وبين القرطاجيين الذين كانت سفنهم تسد طرفي مضيق مسينا وتمنع الرومان من الوصول إلى صقلية، فأعلنت روما الحرب على قرطاجة سنة 265 قبل الميلاد وانتصرت عليها. فظلت صقلية خاضعة للرومان حتى العقد الرابع من القرن الخامس حينما سيطر عليها الوندال ثم القوط الغربيون فالبيزنطيون فالعرب.

المبحث الثاني: صقلية أثناء الفتح الإسلامي.

بدأ اهتمام المسلمين بفتح صقلية في عهد معاوية بن أبي سفيان (ت60 ه)، "قالوا: غزا معاوية ابن حديج الكندي أيام معاوية بن أبي سفيان سِقِلِّيَة، وكان أول من غزاها، ولم تزل تغزا بعد ذلك..."[1].

ثم تكررت محاولات المسلمين للسيطرة على هذه الجزيرة لموقعها الاستراتيجي المهم من جهة، ولأنها كانت قاعدة لهجمات البيزنطيين والروم والبربر الهاربين إليها، على العرب في برقة[2] وأفريقية من جهة أخرى.

"وفي هذه السنة (135ه) غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم بها وسبا وظفر بما لم يظفره أحد قبله بعد أن غزا تلمسان، واشتغل ولاة أفريقية بالفتنة مع البربر فأمن صقلية وعمرها الروم من جميع الجهات وعمروا فيها الحصون والمعاقل وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وربما طارقوا تجارا من المسلمين فيأخذوهم"[3].

---

[1] - "فتوح البلدان". أحمد بن يحي بن جابر البلاذري، دار النشر مؤسسة المعارف، 1987، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ص 329. نقلا عن الموقع الإلكتروني: عصير الكتب.

[2] - برقة هي الجزء الشرقي من ليبيا الحالية، "تأسست برقة في منتصف القرن السادس ق.م. وقد أخذت اسمها الإغريقي من إقليم تابع لها يسمى بركايا Barcaia أوBarcaei ، وكان يضم مدينة توكرة ومستوطنات أخرى شبه مستقلة. وقد كان هيرودوت أول من دون اسم بركايا، وذكر توكرة وقال إنها تابعة لبركايا. ولا يدل استعمال هيرودوت لهذا الاسم على أصول إغريقية، فمن المحتمل أنه أورده بصيغته الإغريقية على هذا النحو عن أصل فينيقي أو ليبي هو بركة أو برقة.

[3] - الكامل في التاريخ للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (555ه.630ه)، المجلد الخامس، ص97، إعداد إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

رغم أن المسلمين تمكنوا من فتح أجزاء من الجزيرة إلا أن أقدامهم لم تثبت فيها إلا في عهد الأغالبة[1]. في الوقت الذي كانت صقلية تحت الحكم البيزنطي تعيش نوعا من الفوضى والاضطرابات.

ويذكر أن سبب تفكير زيادة بن إبراهيم بن الأغلب في فتح صقلية هو قدوم رجل رومي اسمه "فيمي" ولاه بطريق صقلية قسطنطين سنة 211هـ على جيش الأسطول فلم يتبع أوامر القيادات لدى الروم فأمر ملك الروم بحبسه وتعذيبه، فدفعه الأمر إلى التمرد والقتال ضدهم، فانهزم وركب ومن معه في مراكبهم إلى إفريقية وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجده. وهكذا جمع زيادة الله العلماء والفقهاء يستشيرهم في شأن صقلية. وكان ممن استشارهم أسد بن الفرات وأبو محرز القاضيان، وسحنون الفقيه، فانقسم الناس فريقين، فريق يقول بضرورة الجهاد ومنهم أسد بن الفرات الذي علق الجهاد بالسؤال عن وجود أسرى مسلمين في صقلية، وفريق تريث ولم يتحمس للجهاد ومنهم سحنون الفقيه. وبعد أن شهدت الرسل بوجود أسرى مسلمين في صقلية تحركت الجيوش الإسلامية تجاه الجزيرة، وهذا ما أكده ابن الأثير قائلا: "وفي سنة اثني عشر ومائتين جهز زيادة الله جيشا في البحر وسيرهم إلى جزيرة صقلية واستعمل عليهم أسد بن الفرات قاضي القيروان، وهو من أصحاب مالك وهو مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك، فلما وصلوا إليها ملكوا الكثير منها..."[2].

لم يستطع العرب المسلمون فتح صقلية بسهولة، فقد تطلب فتحها ما يقارب الثمانين عاما، ولم تتم السيطرة عليها نهائيا إلا في عام تسعين ومائتين للهجرة. ورغم القوات العسكرية الموجودة آنذاك بصقلية والتي كان يمدها الشرق والغرب، فإن التصميم والإرادة العربية الإسلامية ورفض التراجع عن الهدف ساهما في تحقيق النصر، وفتح العرب المسلمين صقلية.

[1] - في جمادى الثانية من سنة 184هـ (يوليو 800م) إلى حدود سنة 296 هـ، قامت في إفريقية (تونس حاليا) إمارة وراثية بدأت مع إبراهيم بن الأغلب، وعملت جاهدة للاستقلال عن السلطة المركزية في بغداد... وقد تجسم شعار الدولة الفتية (غ ل ب) في شخص الأغلب الذي كان من أبرز القواد عند أبي جعفر المنصور. نقلا عن كتاب "الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي"، تأليف محمد الطالبي.

[2] - "الكامل في التاريخ"، لابن الأثير، المجلد الخامس ص436.

المبحث الثالث: سقوط الجزيرة في أيدي النورمانديين.

استقرت الأوضاع للمسلمين بصقلية لعشرات السنين، إلى أن تغير الوضع في سنة أربع وأربعين وأربعمائة، لما وقع الخلاف مع ابن الثمنة وابن الحواس، وفي هذا يقول ابن الأثير موضحا سبب سقوط جزيرة صقلية في أيدي الفرنجة: " ثم إن الصقليين رجع بعضهم على بعض وقالوا: أدخلتم غيركم عليكم والله لا كانت عاقبة أمركم فيه إلى خير، فعزموا على حرب عسكر المعز، فاجتمعوا وزحفوا إليهم فاقتتلوا فانهزم عسكر المعز وقتل منهم ثمانمائة رجل ورجعوا في المراكب إلى إفريقية.

وولى أهل الجزيرة عليهم حسنا الصمصام أخ الأكحل، فاضطربت أحوالهم واستولى الأراذل وانفرد كل إنسان ببلد وأخرجوا الصمصام، فانفرد القائد عبد الله بن منكوت بمازر وطرابنش وغيرهما، وانفرد ابن الثمنة بمدينة سرقوسة وقطانية وتزوج بأخت ابن الحواس، ثم إنه جرى بينها وبين زوجها كلام أغلظ كل منهما لصاحبه وهو سكران فأمر ابن الثمنة بفصدها في عضديها، وتركها لتموت فسمع ولده ابراهيم فحضر وأحضر الأطباء وعالجها، الى أن عادت قوتها ولما أصبح أبوه ندم واعتذر إليها بالسكر، فأظهرت قبول عذره ثم إنها طلبت منه بعد مدة أن تزور أخاها فأذن لها، وسير معها التحف والهدايا فلما وصلت ذكرت لأخيها ما فعل بها، فحلف أنه لا يعيدها إليه، فأرسل ابن الثمنة يطلبها فلم يردها إليه فجمع ابن الثمنة عسكره، وكان قد استولى على أكثر الجزيرة وخطب له بالمدينة وسار وحصر ابن الحواس بقصريانة فخرج إليه فقاتله، فانهزم ابن الثمنة وتبعه إلى قرب مدينته قطانية وعاد عنه بعد أن قتل من أصحابه فأكثر، فلما رأى ابن الثمنة أن عساكره قد تمزقت سولت له نفسه الانتصار بالكفار لما يريده الله تعالى فسار إلى مدينة مالطة وهي بيد الفرنج قد ملكوها لما خرج بردويل الفرنجي الذي تقدم ذكره سنة إثنتين وسبعين وثلاثمائة واستوطنها الفرنج الى الآن، وكان ملكها حينئذ رجار الفرنجي في جمع الفرنج، فوصل إليهم ابن الثمنة وقال: أنا أملككم الجزيرة. فقالوا: إن فيها جندا كثيرا ولا طاقة لنا بهم. فقال: إنهم مختلفون وأكثرهم يسمع قولي ولا يخالفون أمري. فساروا معه في رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة، فلم يلقوا من يدافعهم، فاستولوا على ما مروا به في طريقهم وقصد بهم إلى قصريانة فحصروها، فخرج إليهم ابن الحواس، فقاتلهم فهزمه الفرنج فرجع إلى الحصن. فرحلوا عنه وساروا في الجزيرة واستولوا على مواضع كثيرة، وفارقها كثير من أهلها من العلماء والصالحين"[1].

[1] - "الكامل في التاريخ"، لابن الأثير، المجلد الثامن ص472/473.

"... فتسلمها الفرنج .لعنهم الله . سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وملك رجار جميع الجزيرة وتطاول إلى سواحل إفريقية"[1].

أفل نجم العرب العسكري والسياسي عن صقلية حينما سيطر النورمانديون على الجزيرة، ودام تأثيرهم الثقافي والحضاري بعدها زمنا طويلا بفضل دراية رجار الثاني .وحلفائه . الذي عامل العرب بروح من التسامح، وبالانفتاح على الحضارة العربية الإسلامية للاستفادة من علومها وفنونها. وقد أخذ رجار عن العرب المسلمين أساليبهم في إدارة البلاد وفي الدواوين والنظم المالية والضرائبية والوظيفية، وتأثر بالتنظيمات العسكرية العربية، فاقتبس الأنظمة الخاصة بالجيوش البرية وطبقها على قواته. وحرص على بناء القصور والمظاهر العمرانية على الطراز العربي. كما دأب على الاهتمام بالآداب والعلوم والفنون العربية، وكان طبيب بلاطه عربيا. وقد أكدت المستشرقة الألمانية زغريد هونكه أن للعرب الفضل في جعل رجار الثاني أغنى ملك في أوربا، بعد أن كان اقل ملوكها غنى، وذلك بسبب اهتماماته الاقتصادية والعمرانية.

لقد شكلت الحضارة العربية في صقلية أساسا متينا للسلطة النورماندية التي قامت على أرضها، بل إن الموقف الإيجابي للنورمان من الحضارة العربية وتفاعلهم العميق معها، جعل جزيرة صقلية من أعظم بلدان أوربا حضارة في القرن الثاني عشر الميلادي. وفي المقابل عمل أهل ملة الكفر على شطب الوجود الإسلامي، وكل ما يتعلق به، على وجه الجزيرة، وما حكاه لنا ابن جبير رحمه الله يبكي العيون دما ويذيب القلوب ألما حيث يقول: "...وأهل النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة أقريطش من المسلمين في المدة السالفة، فإنهم لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء، حالا بعد حال حتى اضطروا التنصر عن آخرهم، وفر منهم من قضى الله بنجاته وحقت كلمة العذاب على الكافرين، والله غالب على أمره، لا إله سواه"[2]. "ومن أعجب ما شهدناه من أحوالهم التي تقطع النفوس إشفاقا وتذيب القلوب رأفة وحنانا أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه أحد أصحابنا الحجاج راغبا أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد زاهقت الإدراك، فإن رضيها تزوجها وإن لم يرضها زوجها ممن رضي لها من أهل البلدة، ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها وإخوتها طمعا في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين، فطاب الأب والإخوة نفسا لذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص الى بلاد المسلمين بأنفسهم إذا زالت هذه العقلة المقيدة عنهم. فتأجر هذا الرجل المرغوب

[1] - "الكامل في التاريخ"، لابن الأثير، المجلد الثامن، ص 4.

[2] -. "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار". ابن جبير. ص115. نقلا عن الموقع الإلكتروني: مكتبة المصطفى الإلكترونية.

إليه بقبول ذلك وأعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة. وطال عجبنا من حال تؤدي بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب وإسلامها إلى يد من يغربها، واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها، والوحشة دونها، كما أنا استغربنا حال الصبية، صانها الله، ورضاها بفراق من لها رغبة في الإسلام واستمساكا بعروته الوثقى، والله عز وجل يعصمها ويكفلها ويؤنسها بنظم شملها ويجمل الصنع لها بمنه. واستشارها الأب فيما هم به من ذلك فقالت له: إن أمسكتني فأنت مسؤول عني. وكانت هذه الصبية دون أم ولها إخوان وأخت صغيرة أشقاء لها"[1].

لقد كان حال المسلمين بالجزيرة بعدما استعادها النورمانديون يتأرجح بين التسامح المطلق والاضطهاد النادر والمعزول في حالات معدودة إلا أنه مع مرور الزمن وفي أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع عم الاضطهاد وكثر وأصبح المسلمون غير مرغوب فيهم بل نصروهم وهجروهم... وهذا ما أكده الرحالة ابن جبير رحمه الله (ت614هـ).

المبحث الرابع: الفتوحات المستمرة وردود فعل الفرنجة القوية.

رغم سرعة انتشار الإسلام في حوض البحر الأبيض المتوسط إلا أنه استمر ببطء في جزيرة صقلية، حيث قارب الثمانين سنة. فقد توالت الغزوات على الجزيرة من طرف المسلمين فدامت الحروب سنين طويلة، بدأت سنة اثني عشر ومائتين للهجرة واستمرت إلى سنة تسع وثمانين ومائتين. وقد ذكر ابن الأثير كل تلك الغزوات في الكامل، قال عن إحداها: "وجاء العباس وهو العباس بن الفضل، أحد أمراء صقلية قال عنه ابن الأثير في الكامل: ...قد ذكرنا سنة ثمان وعشرين ومائتين أن محمد بن عبد الله أمير صقلية توفي سنة ست وثلاثين ومائتين، فلما مات اجتمع المسلمون بها على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب فولوه أمرهم، فكتبوا بذلك إلى محمد بن الأغلب أمير أفريقية فأرسل إليه عهدا بولايته... في باقي العسكر فدخلوا المدينة وصلوا الصبح يوم الخميس منتصف شوال وبنى فيها في الحال مسجدا ونصب فيه منبرا وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيها من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة بحليهن وأبناء الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلا عظيما"[2].

[1] - "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، ص 115/ 116 شهر ذي القعدة ابن جبير.

[2] - "الكامل في التاريخ"، لابن الأثير، المجلد السادس ص 114/112.

منذ أن وطأت قدماه تراب صقلية سنة اثني عشر ومائتين، واصل أسد بن الفرات رحمه الله فتوحاته وانتصاراته على الفرنج، وسار على نهجه كل الأمراء الذين خلفوه من الأغالبة ثم من الفاطميين (العبيديين) بعدهم. حكمها العرب المسلمون أكثر من قرنين، لكن المناهج الإسلامية والنظام الإسلامي عموما استمر أكثر من ذلك بكثير.

لكن بيزنطة لم تنس جزيرة صقلية، ففي سنة واحد وستين وأربعمائة تحرك جيش من البيزنطيين واليونانيين والنورمان واللومبارد بقيادة جورج مانياكس لغزو صقلية، لكنه فشل. ولما أوقف المسلمون الجهاد تركوا المجال للصراع الداخلي فوقع الانشقاق بينهم، وانتهت بمساندة ابن الثمنة للنورمان ضد المسلمين. ونجح في إعانة ملة الكفر على أهل صقلية المسلمين.

الفصل الثاني: الحياة العلمية.

المبحث الأول: المظاهر العلمية

حكم المسلمون صقلية مدة تجاوزت بقليل مائتين وسبعين سنة، وهي قصيرة مقارنة بالمدة التي قضاها المسلمون بالأندلس، لكنها تركت بصماتها بكل وضوح في مناطق مختلفة من الجزيرة، بقيت آثارها شاهدة حتى أيامنا هذه. فأثبتت أن فتح صقلية لم يكن مجرد رحلة صيد وجني غنائم، ولم يكن مجرد مغامرة هدفها المخاطرة والتشويق، بل كانت هناك مشاورات وحسابات تؤكد مدى حرصهم على سلامة المجاهدين. وكان من بين أهدافها أيضا عمارة الأرض ونشر رسالة التوحيد. وقد شجع المسلمون خلال حكمهم على الزراعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب، وظهر في صقلية أدباء وشعراء وفقهاء ومحدثون... وبدأ المجتمع الإسلامي الواعد يستقطب كثيرا من المهاجرين الطامحين والراغبين في العيش الأفضل. وأصبحت المعاهد الإسلامية وجهة يقصدها طلاب العلم من أوربا.

كانت اللغة العربية هي الواسعة الانتشار وذات تأثير كبير، فأضحت لغة معظم سكان الجزيرة. وكان بعض الأهالي يتكلمون اليونانية والبعض الآخر يتحدثون اللاتينية، وحافظوا أيضا على اللغة العامية الصقلية. فأصبح المجتمع الصقلي متعدد اللغات، بل إن صقلية بجهود المسلمين أضحت من الدول الأكثر ازدهارا وحضارة في أوربا. واستمرت هذه الحضارة الإسلامية مزدهرة تلقي بظلالها الوافرة على الحياة العامة في صقلية حتى خلال الحكم النورماندي الذي أعادها إلى حضينة الكفر تدريجيا وبطرق ذكية بل خبيثة إن صح التعبير. وبدا الفرق واضحا جدا

بين ما وجد العرب صقلية عليه بعد سقوط الحكم البيزنطي، وبين ما وجدها عليه النورمانديون بعد خروج المسلمين وتهجيرهم.

المبحث الثاني: المذهب المتبع

إن واقع الفقه في صقلية هو نفسه في أفريقية، والسبب أنها كانت تابعة وخاضعة لها. ففي الفترة التي حكم فيها الأغالبة سيطر المالكيون على صقلية، ولما سيطر العبيديون على الحكم تراجع المذهب المالكي، لكنه حافظ على حضوره رغم كل المحن والصعاب، وذلك لإصرار العبيديين على نشر المذهب الإسماعيلي الشيعي.

وفي منتصف القرن الخامس الهجري، استعاد المذهب المالكي مكانته في الجزيرة الصقلية وذلك بفضل جهد عدد من علماء المالكية، كابن يونس (ت451هـ)، وعتيق بن علي المعروف بالسمنطاري (ت464هـ) وعبد الحق الصقلي (ت496هـ) وغيرهم. لقد استطاع علماء المالكية أن ينتصروا على العبيديين ويطردوهم من شمال أفريقية من خلال ثورتهم المعروفة بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد الأعرج الخارجي. وقد أجمع علماء المالكية على ذلك لما فيه من المصلحة التي ذكرها أبو الفضل عباس بن عيسى بن محمد ابن عيسى المسي (ت333 هـ). قال المالكي في رياض النفوس: "رأى رضي الله عنه أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي وقطع دولة بني عبيد فرض لازم، لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام، ويورثون ويرثون، وبنو عبيد ليسوا كذلك، لأنهم مجوس زال عنهم اسم الإسلام، فلا يتوارث معهم، ولا ينسب إليهم".

وقد قاوم أهل السنة الشيعة من خلال صمودهم، والصبر على ذلك، رغم ما تعرضوا له من تعذيب وتقتيل، وقد وصف الدباغ ما جرى بقوله: "جزى الله مشيخة القيروان خيرا، فهذا يموت، وهذا يضرب، وهذا يسجن، وهم صابرون لا يفرون، ولو فروا كفرت العامة دفعة واحدة".

تولى منصب القضاء في أفريقية عدد من القضاة كان معظمهم مالكيين، وأذكر منهم سحنون بن سعيد وعبد الله بن طالب وعيسى بن مسكين وحماس بن مروان. وذكر القاضي عياض المذاهب الفقهية في أفريقية، وبين أن المذهب المالكي دخل إليها من خلال عدد من العلماء، منهم علي بن زياد وابن أشرس والهلول بن راشد وأسد بن الفرات. فأخذ عنهم كثير من طلاب العلم، ولم تزل دائرة المذهب المالكي تتسع إلى أن جاء سحنون فغلب المذهب نفس في أيامه، ولم يكن بالقيروان إلا قوم قلائل أخذوا بالمذهب الشافعي.

ذكر المقدسي القيروان وأشار إلى وجود الحنفية والمالكية بها دون غيرهم، قال: "القيروان مصر الإقليم، بهي عظيم قد جمع ... السهل والجبل والبحر والنعم، مع علم كثير ... هي فرضة للمغربيين ومتجر البحرين، لا ترى أكثر من مدنها ولا أرفق من أهلها، ليس غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة لا شغب بينهم ولا عصبية، لا جرم أنهم على نور من ربهم قد أقبلوا على ما يعنيهم وارتفع الغل من قلوبهم... "[1].

لقد كان للمجالس العلمية التي تعقد في المساجد، ولمجالس أخرى خاصة بالعلماء والنخبة من طلبة العلم، دور كبير ومهم في تطوير الحركة العلمية بصقلية. لقد اعتنت حلقات الدرس الفقهي بها بموطإ مالك وغيره من المؤلفات، وعرفت المساجد والمؤسسات العلمية حلقات في علم القراءات يرأسها مشايخ كبار، وفي علم الحديث اقتصرت الدراسات الحديثية في أغلب حالاتها على الموطإ شرحا وتلخيصا، وصحيح مسلم، ورواية بعض كتب غريب الحديث. كما خصت علوم اللغة والأدب باهتمام الصقليين، فدرسوا الكتب التي حالفهم الحظ للتوصل بها وشرحوها واختصروها. كما ظهر منهم شعراء كثر، بل كان منهم عدد من الشعراء المبرزين.

ومع نهاية القرن الرابع الهجري بدأت المدرسة الصقلية بإصدار مصنفاتها الفقهية ومؤلفاتها الأدبية ودواوينها الشعرية ... وتخرج منها علماء سجلوا أسماءهم ضمن لائحة العلماء الكبار. منهم من عمر في صقلية حتى وافته المنية ودفن بها، ومنهم من ولد وعاش على أرضها حتى مات بها، ومنهم من كانت صقلية مسقط رأسه وتلقى بها ما شاء الله من العلوم ثم سافر إلى بلاد الإسلام وتوفي بعيدا عن موطنه، ومن العلماء من مر بها، واستقر بها مدة من الزمن ثم غادرها.

الفصل الثالث: أعلام صقلية

المبحث الأول: بعض علماء صقلية

مع نهاية القرن الرابع الهجري بدأت المدرسة الصقلية بإفادة الأمة الإسلامية بمصنفاتها الفقهية ومؤلفاتها الأدبية ودواوينها الشعرية... وتخرج منها علماء سجلوا أسماءهم ضمن لائحة العلماء الكبار. منهم من عمّر في صقلية حتى وافته المنية ودفن بها، ومنهم من ولد وعاش على أرضها حتى مات بها، ومنهم من كانت صقلية مسقط رأسه وتلقى بها ما شاء الله من العلوم ثم سافر إلى

[1] - "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري. طبع بمدينة ليدن المحروسة سنة 1877. ص 60، نقلا عن الموقع الإلكتروني "مكتبة عين الجامعة".

بلاد الإسلام وتوفي بعيدا عن موطنه، ومن العلماء من مر بها، واستقر بها مدة من الزمن ثم غادرها وأذكر منهم:

1- عبد الجليل بن مخلوف أبو محمد الصقلي 459هـ:

الفقيه المفتي، حدث عن عبد الملك الصقلي. روى عنه أبو محمد عبد القادر القروي. قال ابن ميسر: "أفتى بمصر أربعين سنة، ومات سنة تسع وخمسين وأربعمائة"[1].

قال القاضي عياض: "أبو محمد من أهل صقلية تفقه على يد شيوخ القرويين والصقليين. فمن شيوخه بصقلية: أبو بكر ابن أبي العباس، والفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن، وابن عمران الفاسي، وعبد الله بن الأجدابي، وأبو عبد الله مكي القرشي. وألف كتاب "النكت والفروق لمسائل المدونة"، وألف أيضاً كتابه الكبير في شرح المدونة، المسمى بـ"تهذيب الطالب"، ونبه فيه على ما استدركه، على كتاب النكت. وله استدراك على مختصر البرادعي. وكان له حظ من الأصول والفروع، وله عقيدة رويت عنه، وله جزء فيضبط ألفاظ المدونة. فقيه متكلم أصولي، فاضل مشهور في موضعه. ذكره الميورقي، فقال: كان متكلما إماما في علم الأصول، نافذا في علم الفروع، متورعا عن الفتيا. وقال أيضا: وهو أكبر من لقيت بصقلية. وكان شيخنا القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري، قد لقيه بها. وكان يثني عليه، وحدث عنه، وأخذ عنه. ابن محمد الجزار صقلي مشهور مقدم ببلده، انفرد فيه برئاسة الفتيا والشهرة بالخير والصيانة والديانة. وكان من أهل التحقيق بالفقه والأصول، على يده تفقه أبو القاسم السرقوسي، ومتأخر الصقليين. ولقيه أبو الوليد الباجي، وابن عمار، وغيرهما من الأندلسيين. قرين عبد الحق في رئاسته العلم بصقلية، رحمه الله"[2].

2 - عبد الحق بن محمد بن هارون أبو محمد القرشي السهمي466هـ:

الصقلي، الفقيه، المتفنن، الصالح.

تفقه بأبي بكر أحمد بن عبد الرحمن القيرواني، وأبي عمران الفاسي، وأبي عبد الله بن الأجدابي، وغيرهم. "ولقي القاضي أبا محمد عبد الوهاب ابن علي بن نصر، وأبا ذر الهروي، وإمام

[1] - "جمهرة تراجم الفقهاء"، القاضي عياض، الطبعة الأولى 2002، ترتيب وتهذيب الدكتور قاسم علي سعد، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث. دورة الإمارات العربية المتحدة، إمارة دبي، ص1102.

[2] - "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك". القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي المتوفى سنة 544هـ، تحقيق سعيد أحمد أعراب، 1983، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج 8، ص 74.

الحرمين أبا المعالي"[1].

قال القاضي عياض: "وكان فقيها فهما، صالحا دينا، مقدما بعيد الصيت شهير الخير مليح التأليف. وألف كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة، وهو مفضل عند الشادين من حذاق الطلبة، ويقال إنه ندم بعد ذلك على تأليفه، ورجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته فيه، واستدرك كثيرا من كلامه فيه وقال: لو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت أو نحو هذا، وألف أيضا كتابه الكبير في شرح المدونة المسمى بتهذيب الطالب، ونبه فيه على كتاب النكت، وله استدراك على مختصر البرادعي، وكان له حظ في الفروع والأصول، وله عقيدة رويت عنه، وله جزء في ضبط ألفاظ المدونة. وقال ابن عمار المتكلم: إمام مشهور بكل علم، متقدم، مدرس للأصول والفروع"[2].

توفي بالإسكندرية سنة ست وستين وأربعمائة 466هـ.

3 - ابن الفحام 516هـ:

هو "الإمام شيخ القراء، أبو القاسم عبد الرحمان بن أبي بكر عتيق بن خلف القرشي الصقلي المقرئ النحوي ابن الفحام، نزيل الإسكندرية، ومؤلف «التجريد في القراءات». تلا بالسَّبع على أبي العباس ابن نفيس، وأبي الحسين بن نصر بن عبد العزيز الفارسي، وعبد الباقي بن فارس، وإبراهيم بن إسماعيل المالكي بمصر، وطال عمره، وتفرد، وتزاحم عليه القراء. تلا عليه أبو العباس بن الحطية، وابن سعدون القرطبي، وعبد الرحمان بن خلف الله، وعدة ... أخذ النحو عن ابن بابشاذ، وعمل شرحا لمقدمته.

قال سليمان بن عبد العزيز الأندلسي: ما رأيت أحدا أعلم بالقراءات من ابن الفحام، لا بالمشرق ولا بالمغرب، وروى عنه السلفي، وأبو محمد العثماني، وغيرهما، وثقة السلفي وابن المفضل.

ولد سنة اثنتين أو خمس وعشرين وأربع مائة، وهو يشك، وتوفي في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمس مائة بالثغر، وله نيف وتسعون سنة، وآخر أصحابه في الدنيا بالإجازة أبو طاهر الخشوعي.

[1] - "ترتيب المدارك"، القاضي عياض ج8، ص 72.

[2] - "ترتيب المدارك" للقاضي عياض، ج 8، ص 71.

وقد ذكره السلفي، فقال: هو من خيار القراء، رحل سنة ثمان وثلاثين، فأدرك ابن هشيم، وابن نفيس، علقت عنه فوائد، وكان حافظا للقراءات، صدوقا، متقنا، عالما، كبير السن، وقيل: كان يحفظ القراءات كالفاتحة[1]".

بعد أن حفظ ابن الفحام القرآن الكريم رحل من جزيرة صقلية مسقط رأسه إلى مصر في سبيل طلب العلم والقراءات. وله كتاب «الجامع في القراءات العشر».

تصدر ابن الفحام لتعليم القرآن وحروفه، واشتهر بالثقة وجودة القراءة وصحة الضبط والاتقان. وبالجملة، فقد كان ابن الفحام إماما محققا، ثقة، متقنا، وقد وهب حياته لخدمة القراءات القرآنية تعلما وتعليما، وصنف كتابه المشهور في القراءات «التجريد لبغية المريد».

رحم الله ابن الفحام رحمة واسعة إنه سميع مجيب.

4 - محمد بن أبي الفرج بن فرج بن أبي القاسم أبو عبد الله الصقلي المازري536هـ:

الفقيه، النحوي، اللغوي، المتفنن المعروف بالذكي. أخذ عن أبي القاسم السيوري، والخرقي، وغيرهما. تفقه به أبو الفضل بن النحوي، والقاضي أبو عبد الله بن داود.

قال القاضي عياض: "وكان فقيها حافظا، مدركا نبيلا، فهما متقدما في علم المذهب واللسان، متفننا في علوم القرآن وسائر المعارف... وحكي أن السيوري كان يقول: ابن أبي الفرج أحفظ من رأيت، فقيل له: تقول هذا وقد رأيت أبا بكر بن عبد الرحمن وأبا عمران الفاسي؟ فقال: هو أحفظ من رأيت. وكان القاضي أبو عبد الله بن داود يقول: شيخنا الذكي أفقه من أبي عمران، ومن كل مالكي حتى فضله على إسماعيل بن إسحاق القاضي؟... وحمل عنه أدب كثير، وعلم جم، وألف في علوم القرآن كتابا كبيرا سماه "الاستيلاء" وله تعليق كبير في المذهب مستحسن وخرج على أنه ألف سؤال... ولما صعد إلى المشرق ودخل بغداد وجد مذهب مالك بها قد درس وقل طلبه فلم يحصل له بالفقه رئاسة هناك، ولتقدم أهل المشرق في صنعة النظر وحذق الجدل الذي بذلك تقدم أئمتهم فرأس بالنحو وعلم اللسان، واستصحبه القيم بالخلافة بها إذ ذاك الملك العادل أبو الفتح، وأشخصه إلى أصبهان لتدريس بنيه الأدب فذهب علمه بالسنة هناك ضياعا"[2].

[1] - "سير أعلام النبلاء" الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة 748هـ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1405هـ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، الجزء 19، ص 389/388.

[2] - "ترتيب المدارك" للقاضي عياض، ج 8، ص 74.

قال الإمام الذهبي: "الشيخ الإمام العلامة البحر المتفنن أبوعبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري المالكي مصنف كتاب "المعلم بفوائد شرح مسلم"، ومصنف كتاب" إيضاح المحصول في الأصول" وله تواليف في الأدب وكان أحد الأذكياء الموصوفين والأئمة المتبحرين وله "شرح كتاب التلقين" لعبد الوهاب المالكي في عشرة أسفار، هو من أنفس الكتب، وكان بصيرا بعلم الحديث حدث عنه القاضي عياض وأبو جعفر بن يحي القرطبي الوزعي مولده بمدينة المهدية من إفريقية، وبها مات في ربيع الأول، سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وله ثلاث وثمانون سنة ومازر بلدة من جزيرة صقلية بفتح الزاي وقد تكسر قيده ابن خلكان قيل إنه مرض مرضة فلم يجد من يعالجه إلا يهودي فلما عوفي على يده قال لولا التزامي بحفظ صناعتي لأعدمتك المسلمين فأثر هذا على المازري فأقبل على تعلم الطب حتى فاق فيه وكان ممن يفتي فيه كما يفتي في الفقه وقال القاضي عياض في المدارك المازري يعرف بالإمام نزيل المهدية قيل إنه رأى رؤيا فقال يا رسول الله أحق ما يدعونني به إنهم يدعونني بالإمام فقال وسع الله صدرك للفتيا ثم قال هو آخر المتكلمين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه"[1]...

مؤلفاته:

أذكر منها:

- "إيضاح المحصول من برهان الأصول"، حققه الدكتور عمار الطالبي الأستاذ بجامعة الجزائر في 536 صفحة.

-"المعلم بفوائد مسلم" علق به على صحيح مسلم. وحققه فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر في ثلاثة أجزاء.

-"شرح التلقين"، حققه سماحة الشيخ محمد المختار السلامي في خمسة أجزاء.

-"الكشف والإنباء" في الرد على الإيحاء للغزالي[2].

"عاش المازري محمد بن علي بن عمر التميمي عمرا مديدا فقد تجاوز الثمانين بثلاث سنين. ولم تذكر المصادر المترجمة له ولادته، وإنما اكتفت بذكر عمره. وبالنسبة لذلك مع وفاته نجد أنه ولد سنة (453) وقد ذكر عمره ابن خلكان في "وفياته"، والذهبي، وابن فرحون في "الديباج".

[1] - "سير أعلام النبلاء" الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الجزء 20، ص 104.

[2] - نقلا عن الموقع الإلكتروني "المكتبة الشاملة".

لكن نجد الأستاذ المرحوم حسن حسني عبد الوهاب يذكر أنه ولد سنة (443). ولم أظفر إلى اليوم بمستند يدعم ما جاء به إذ لم يذكر أحد أنه عاش نيفا وتسعين حتى إن ما خالف فيه ابن قنفذ غيره من أنه قارب التسعين، أي أنه توفي في حدود سبع أو ثمان وثمانين لا يوافق ما ذكره الأستاذ عبد الوهاب. فالمصادر كلها مطبقة على أنه لم يبلغ التسعين فضلا عن تجاوزها ولهذا لا يصح أنه ولد سنة 443.

أما وفاته فهي محل اتفاق من أنها سنة (536) في الثامن عشر من ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخمسمائة وقيل توفي في ثاني الشهر المذكور بالمهدية، ودفن بالمنستير"[1].

5 - محمد بن ظفر الصقلي (499هـ.567هـ/ 1104م.1172م):

وصفه الإمام الذهبي بـ "العلامة البارع، حجة الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي محمد بن محمد ابن ظفر الصقلي، صاحب كتاب (خير البشر)، وكتاب (سلوان المطاع في عدوان الأتباع) الذي يعتبر البعض أن ميكيافيلي اعتمد عليه كثيرا في كتابه الشهير "الأمير" المتعلق بأمور الحكم والسياسة. وكتاب (شرح المقامات).

وكان قصيرا لطيف الشكل، وله نظم وفضائل. سكن حماة، ونشأ بمكة، وأكثر الأسفار[2]".

وعُرف أيضا بمجال الأدب فكتب شرحا للمقالات، وله نظم. كان مستشارا لحاكم صقلية أبو القاسم بن علي القرشي أيام حكم العرب للجزيرة.

الغالب أن ابن ظفر ترك صقلية بعد سقوط الحكم العربي بها ورحل إلى مدينة حماة السورية ومات بها.

6 - القاضي أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن:

ورد اسمه في كتاب شجرة النور الزكية أنه "المعروف بابن الحصائري الصقلي العالم الفقيه الفاضل الراوية مع الورع والدين المتين. سمع أبا محمد بن أبي زيد وأبا الحسن بن فكرون وأبا عبد

[1] - "المعلم بفوائد مسلم"، للإمام المازري، الجزء الأول، الطبعة الثانية، تقديم وتحقيق فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر 1987، نقلا عن مقدمة الشيخ النيفر، ص 31-32.

[2] - "سير أعلام النبلاء"، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ص 522.

الله محمد بن أحمد بن يزيد القروي. أخذ عنه الناس وتفقهوا به. سمع منه عتيق السمنطاري وأبو بكر محمد بن يونس وعتيق بن عبد الحميد بن الفرضي وغيرهم. لم أقف على وفاته"[1].

7 - أبو بكر بن العباس:

ورد اسمه في كتاب شجرة النور الزكية أنه "فقيه صقلية، وعالمها ومدرسها، أخذ عن ابن أبي زيد وغيره وعنه أبو بكر محمد بن يونس الصقلي. لم أقف على وفاته. فاضل، أدب في القرآن والفرائض، وتفقه عليه في المدونة وكان إماما في علم الفرائض، وعنه أخذها أهل صقلية وغيرهم. حدث عن القابسي، أخذ عنه ابن يونس، والسمنطاري"[2].

المبحث الثاني: بعض الأعلام الذين مروا بصقلية

لقد كان للمجالس العلمية التي تعقد في المساجد، ولمجالس أخرى خاصة بالعلماء والنخبة من طلبة العلم، دور كبير ومهم في تطوير الحركة العلمية بصقلية. لقد اعتنت حلقات الدرس الفقهي بها بموطإ مالك وغيره من المؤلفات، وعرفت المساجد والمؤسسات العلمية حلقات في علم القراءات يرأسها مشايخ كبار، وفي علم الحديث اقتصرت الدراسات الحديثية في أغلب حالاتها على الموطأ شرحا وتلخيصا، وصحيح مسلم، ورواية بعض كتب غريب الحديث. كما خصت علوم اللغة والأدب باهتمام الصقليين، فدرسوا الكتب التي حالفهم الحظ للتوصل بها وشرحوها واختصروها. كما ظهر منهم شعراء كثر، بل كان منهم عدد من الشعراء المبرزين.

الحقيقة أنه لولا هؤلاء العلماء الذين مروا بجزيرة صقلية لما توصلنا بالكثير من الأخبار والأسرار عن الجزيرة. ولقد اخترت ثلاثة نماذج منهم فقط، علما أن العلماء الذين مروا بالجزيرة وعاشوا فيها فترة من الزمن هم كثر. وفي هذه المساهمة لا يتسع المجال لذكرهم جميعا. وأرجوا من العلي القدير أن يوفقني لأعرف بهم جميعا في بحث آخر إن شاء الله. وعليه اقتصرت على بعض الرحالة الذين نقلوا أخبار الماضي، ورسموا العالم المعروف آنذاك، بالكلمات والجمل وبالخرائط والرسوم التي لازالت تحمل القيمة العلمية المميزة إلى يومنا هذا، وسأذكرهم حسب ترتيب تاريخ وفياتهم.

---

[1] - "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، تأليف العلامة الجليل الأستاذ الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف المتوفى سنة 1360هـ، خرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، الطبعة الأولى 2003، دار الكتب العلمية بيروت، الجزء الأول، ص 146.

[2] - "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، ص 146.

1- ابن حوقل367هـ:

هو "أبو القاسم محمد بن علي الموصلي البغدادي، الشهير بـ (ابن حوقل) جغرافي كبير، رحالة (نشأ في بغداد، وقرأ ما سبقه وعاصره من كتب جغرافية، وشغف بهذا العلم، فصمم على أن يضع فيه كتابا لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه، وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته في العالم الإسلامي، فطاف بهذا العالم ثلاثين سنة). وعده الدارسون على رأس قائمة (جغرافيي القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي –) ... وضع كتابه «المسالك والممالك» (وتصادف أن تشيع، وكانت مصر يحكمها الفاطميون، فتحول داعيا لهم، واتجه بكتابه «المسالك والممالك» هذه الوجهة السياسية. ويتضح ذلك في حديثه عن البلاد التي كان يهم الفاطميين أن يستولوا عليها مثل الأندلس وصقلية... وكتابه هذا ليس كتاب سرد جغرافي، وإنما هو رحلة كبيرة في العالم الإسلامي، رحلة جغرافية بديعة ... وقد كانت لابن حوقل ميول سياسية متسمة بتعاطف مع آراء فرقة المعتزلة). ورغم أن ابن حوقل (يذم أهل الأندلس والعرب المسلمين) إلا أنه (يعود فيكيل المديح لغنى بلادهم وتقدمها وازدهار مدنها وتطورها. وهكذا فإن المقياس لم يكن دائما الانتماء إلى الإسلام أو الازدهار العمراني. ونجد أن العامل السياسي لعب دورا أساسيا في إطلاق الأحكام على الشعوب والأمم، ويعتقد البعض أن ابن حوقل مثلا كان عميلا للفاطميين في القاهرة أو العباسيين في بغداد)[1]".

من أشهر أعماله "صورة الأرض" الذي يسمى أيضا "المسالك والممالك"، وقد تضمن هذا الكتاب وصفا مفيدا ومفصلا للأراضي التي سيطر عليها المسلمون في إسبانيا وإيطاليا وبالأخص صقلية.

كان ابن حوقل أكثر من محرر، فقد كان رحالة يمضي وقتا طويلا في الكتابة عن المناطق والأشياء التي يراها. أمضى آخر ثلاثين عاما من حياته مسافرا إلى مناطق نائية في آسيا وإفريقيا. المعلومات القليلة المتوفرة عن ابن حوقل مستخلصة من كتابه الذي كان مراجعة وتطويرا لكتاب "مسالك الممالك" للإصطخري.

وتظهر صلة ابن حوقل بهذا البحث في قوله: "...إلى الموضع المعروف بالبيضاء وهي قرية تشرف على المدينة بينهما نحو من فرسخ وقد خربت وهلك أربابه بما دار عليهم من الفتن يعرف

[1]- "مشاهير الرحالة العرب"، تأليف كمال بن محمد الريامي، كنوز للنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة الأولى 2013، ص 59/58/57.

ذلك جميعهم غير مختلفين في مقدارها وإنها تزيد على مائتي مسجد ولم أر مثل هذه العدة في بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها... وأنا محققه في صقلية لأني شاهدت أكثره ولقد كنت واقفا ذات يوم بها في جوار دار أبي محمد القفصي الفقيه الوثائقي فرأيت مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصري... وسألت عن ذلك وقيل أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه... وفي جملة هذه العشرة مساجد التي ذكرتها مسجد يصلي فيه أبو محمد القفصي وإلى جانبه بنحو عشرين خطوة مسجد لولده ابتناه ليتفقه فيه وغرض كل واحد منهم أن يقال مسجد فلان لا غير"[1].

من خلال قراءتنا لهذا الجزء من النص الخاص بصقلية، ندرك أكثر من إشارة عن حال المسلمين بالجزيرة، ومدى جهلهم بالدين، مما يفيد – لا محالة – في معرفة جزء مهم من تاريخ صقلية أيام حكم العرب.

2- الشريف الإدريسي561هـ:

هو "محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. الشرف الإدريسي، مؤلف كتاب رجار وهو «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ... وكان أديبا ظريفا شاعرا مغرىً بعلم جَغرافيا"[2].

جاء لقبه بالشريف لنسبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم. يعتبر الشريف الإدريسي أحد أكبر الجغرافيين في التاريخ، وأعظم جغرافي ظهر في القرون الوسطى، كما أنه كتب في التاريخ والأدب والشعر والنبات ودرس الفلسفة والطب والنجوم. ومن مؤلفاته "رايات المبرزين وغايات المميزين" ويتألف من قسمين كبيرين أولهما في أهل الأندلس، والثاني في أهل المغرب وجزيرة صقلية. وقد نشر ثلاث مرات (سنة 1942 .1973 .1987). ثم "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وهو كتاب كان نتاج رحلات الإدريسي ألفه في صقلية بناء على طلب روجر الثاني، ضمنه كل ما عرفه الأقدمون من معلومات زاد عليها ما اكتسبه وما رآه ورصده في أسفاره ورحلاته، وفيه أكثر من سبعين خريطة.

[1] - "المسالك والممالك"، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله، طبع في مدينة ليدن المحروسة بطبعة بريل سنة 1889، ص83.

[2] - "الوافي بالوفيات"، صلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدي، ت764، تحقيق واعتناء أحمد الأرنأوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 2000، الجزء الأول، ص 138.

"ولد الإدريسي بمدينة سبتة المغربية سنة 493هـ، ولا يعلم شيء عن أحواله في تلك المدينة ولا عن نشأته فيها، ولا عن الشيوخ الذين تلقى عنهم. ولكن المعروف أنه رحل إلى قرطبة وتلقى العلم فيها حيث كانت من أكبر مراكز الثقافة العربية الإسلامية. وقد أتاح له مقامه بقرطبة أن يجعل منها نقطة انطلاق لجولات كثيرة في الأندلس، كما أتاحت له إقامته في سبتة أن يجعل منها رحلاته إلى بلاد المغرب التي يصفها وصف الخبير. على أن حديثه عن لشبونة وسواحل فرنسا وانجلترا الجنوبية يحمل على الاعتقاد بأنه زار تلك الجهات"[1].

عندما سمع الملك روجر الثاني بالشريف الإدريسي وأنه عالم في الجغرافيا، بعث إليه يستدعيه إلى صقلية بغية وضع مرجع جغرافي شامل ورسم خريطة دقيقة للعالم. وفي عام 533هـ/1138م وصل الشريف الإدريسي إلى صقلية فاستقبله الملك روجر الثاني أفضل استقبال. وفي صقلية طاب له العيش، فقد أكرمه الملك روجر أحسن إكرام وأجرى عليه راتبا شهريا لا يناله إلا العظام، وأسكنه في أحد القصور الصقلية.

"وفي حدود سنة 533هـ – سنة 1138م دخل الإدريسي صقلية بدعوة من الملك روجر الثاني... وفي خلال إقامته قريبا من بلاط هذا الملك الذي كان يشجع العلم والعلماء، صنع الكرة الأرضية الفضية، والخرائط والمصورات، وألف كتابه «نزهة المشتاق» الذي كان بتكليف من روجر حتى ليسمى هذا بالكتاب الروجاوي، أو كتاب روجار، نسبة إلى الملك روجر الذي كتب له وألف برسمه"[2].

عاش الشريف الإدريسي في صقلية مدة أربعين عاما، واختلفت الروايات عن مكان وفاته. فقيل إنه عاش في الجزيرة حتى وافته المنية بها، وقيل أيضا .وهو القول الراجح .أنه عاد إلى سبتة وعاش فيها حتى وافته المنية عام 561هـ/1165م. وترك للإنسانية إرثا لا يقدر بثمن وهي تلك الكتب الرائعة "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" و"روضة الأنس ونزهة النفس" وهو ما وصلنا أيضا باسم "المسالك والممالك"، ثم كتاب "الجامع لصفات أشتات النبات" و"الأدوية المفردة" و"أنس المهج وروض الفرج". كما أنه كتب من الشعر ما جعله يسجل اسمه ضمن الشعراء الكبار.

[1] - "أعلام العرب 97 – الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام"، محمد عبد الغني حسن، وزارة الثقافة – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1971، ص 09.

[2] - أعلام العرب 97 – الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام، ص 10.

3- ابن جبير614هـ:

أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، جغرافي عربي ولد في بلنسية سنة 540هـ/1145م، من أسرة عربية عريقة سكنت الأندلس منذ عام 123هـ، أتم حفظ القرآن ودرس علوم الدين وشغف بها، وبرز ميوله في علم الحساب والعلوم اللغوية والأدبية، وأظهر مواهب شعرية ونثرية رشحته للعمل كاتبا. تعلم على يد أبيه وغيره من العلماء في عصره، ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين في وظيفة كاتم السر فاستوطن غرناطة. ارتحل سنة 578هـ/1183م قاصدا مكة لأداء فريضة الحج، فمر بالإسكندرية، ثم القدس، ثم المدينة، ثم مكة، ثم دمشق، ثم الموصل، ثم عكا، ثم بغداد ثم عاد سنة 580هـ/1185م عن طريق صقلية. أعطى ابن جبير في أسفاره أوصافا دقيقة للأماكن التي زارها في يوميات عرفت بـ" رحلة ابن جبير" وسميت باسم "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار".

يقال إنه سافر ثلاث مرات في حياته إلى المشرق ثم استقر بمصر وتوفي بالإسكندرية في شهر شعبان سنة 614هـ/1217م.

لقد كانت رحلاته بمثابة مدونة وافية لما شاهده، ووصفا واضحا لبعض تاريخ البلاد الإسلامية والمسيحية التي مر بها، وقاموسا لمصطلح عصره في بناء السفن والملاحة البحرية، ومرجعا لأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم في أواخر القرن السادس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي.

في كتابه "الأخبار عن اتفاقات الأسفار" خص ابن جبير الجزء الأخير بجزيرة صقلية فتحدث عن أحوال المسلمين وما آلت إليه أوضاعهم في ظل الحكم النورماندي، وذكر بعض مدنها وما تزخر به من خيرات طبيعية وما صنعه سكانها من بساتين مثمرة بأنواع مختلفة من الفواكه، "وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف، وكفا بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة بالأرزاق على اختلافها مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها، لكنها معمورة بعبدة الصلبان... والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم... وضربوا عليهم إتاوة في فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها"[1]. وجاء في حديثه مع أحد مسلمي الجزيرة: "... وقال لنا: أنتم مدلون بإظهار الإسلام، فائزون بما قصدتم له رابحون إن شاء الله في متجركم ونحن كاتمون

[1] - "رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية – عصر الحروب الصليبية"، تأليف ابن جبير، تحقيق د. حسين نصار، الطبعة الأولى 1955، نقلا عن الموقع الإلكتروني المكتبة الوقفية للكتب المصورة، ص314.

إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا، معتقلون في ملكة كافر بالله، قد وضع في أعناقنا ربقة الرق، فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج، واستشهاد أدعيتهم... فتفطرت قلوبنا له إشفاقا، ودعونا له بحسن الخاتمة، وأتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه، وأبلغ في مجازاتنا ومكافأتنا"[1].

وأضاف متحدثا عن حال المسلمين "وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع... ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي"[2]. "وسكانها[3] المسلمون والنصارى، ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس"[4]. "وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس، تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب، دمرهم الله، وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة، والمقام تحت عهدة الذمة، وغلظة الملك، طوارئ دواعي الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم. وربما تسبب بعض أشياخهم أسباب نكالية تدعوه فراق دينه"[5].

إن الرحالة ابن جبير كباقي علماء المسلمين أبى إلا أن يسجل اسمه ضمن لائحة العلماء الكبار الذين أفرغوا جهودهم من أجل إفادة الإسلام والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم، ولا يسعنا إلا أن نسأل لهم قبول أعمالهم والفوز في الدار الآخرة.

المبحث الثالث: نموذج من الفقهاء الذين نسبوا إلى صقلية وهم ليسوا منها.

1- الإمام ابن يونس الصقلي451هـ:

أ. نسبه:

محمد بن عبد الله بن يونس أبو بكر، ويقال أبو عبد الله التميمي. "الصقلي ثم القيرواني، الفقيه، الفرضي، الحاسب، المجاهد. وينسب إلى جده. قال عنه القاضي عياض: وكان فقيها فرضيا حاسبا[6]".

---

[1] - المصدر نفسه ص 317/316.

[2] - "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار "، ص 322.

[3] - يقصد مدينة أطرابنش وهي مدينة تقع غرب صقلية وتسمى اليوم طرابني Trapani.

[4] - المصدر نفسه ص 325.

[5] - المصدر نفسه ص 331.

[6] - "جمهرة تراجم الفقهاء المالكية". القاضي أبو الفضل عياض بن موسى السبتي 476هـ / 544هـ . ترتيب واختصار وتهذيب واستدراك وتوثيق د. قاسم علي سعد، دار البحوث للدراسات الإسلامية دبي، الطبعة الأولى 2002، الجزء الثالث، ص.1132.

وذكره الإمام الحطاب أبو عبد الله في "مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل"، هو "أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي الإمام الحافظ النظار أحد علماء وأئمة الترجيح الأخيار الفقيه الفرضي الملازم للجهاد الموصوف بالنجدة وهو الذي يعنيه ابن عرفة بالصقلي".

وهو من بيت قيرواني معروف، نسب إلى صقلية لأن والده سافر إليها واستقر بها فنسب إليها. "كان فقيها إماما عالما فرضيا أخذ عن أبي الحسن الحصائري القاضي، وعتيق بن الفرضي، وابن أبي العباس. وكان ملازما للجهاد، موصوفا بالنجدة، ألف كتابا في الفرائض، وكتابا جامعا للمدونة أضاف إليها غيرها من الأمهات، وعليه اعتماد طلبة المذاكرة"[1].

ب. مولده:

ولد ابن يونس في بلرم عاصمة صقلية، ولم تذكر مصادر الترجمة المتاحة لدي تاريخ ولادته، لكن يظهر أنها كانت في أواخر القرن الرابع الهجري لأن انتقاله كان في آخر القرن الرابع كما ذكر حسن حسني عبد الوهاب في كتابه "العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين".

ج. نشأته:

عاش ابن يونس الصقلي رحمه الله أول عمره في صقلية، "نشأ في كنف والديه نشأة سوية، وربياه تربية صحيحة، فحبباه في العلم وأهله منذ الصغر، لذا كان من طلاب العلم الجادين، إذ طلب العلم على كبار علماء صقلية وقضاتها المشهورين، كما أثبتت مصادر ترجمته، ثم بعد ذلك . وفي آخر القرن الرابع . رحل إلى القيروان، فطلب العلم على شيوخها وعلمائها في ذلك الوقت. واستقر في القيروان"[2].

حيث "أخذ عن شيوخها وأكثر من النقل عن بعضهم، واستمر بالقيروان إلى حدود سنة 449هـ ففي تلك السنة جاء الزحف الهلالي على إفريقية وذلك بعدما أعلن المعز بن باديس الصنهاجي استقلاله عن الفاطميين، فبعثوا إليه بقبائل الأعراب من الهلاليين فمزقوا شمل الدولة، وقضوا على معالم الحضارة، وخربت القيروان، ولم تعد العاصمة السياسية القوية ولا

[1] - "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، لابن فرحون المالكي 799هـ دار التراث للطبع والنشر، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، المجلد الثاني ص: 240. نقلا عن الموقع الإلكتروني – المكتبة الوقفية –

[2] - "الجامع لمسائل المدونة" المسمى مصحف المذهب المالكي للإمام العلامة ابن يونس، الجزء التاسع، إعداد حمدان بن عبد الله الشميري. الطبعة الأولى 2013. أصل هذا الكتاب رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم الدراسات العليا الشرعية فرع الفقه وأصوله، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى.

مركزا تشع منه المعارف والعلوم والآداب. وتفرق من بقي حيا من علمائها في الأمصار، وانتقل الإمام بن يونس إلى المهدية[1]، وأقرأ بها الفقه والفرائض حتى توفي رحمه الله في العشرين من ربيع الأول وقيل في أول العشر الأواخر من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وأربع مائة"[2] للهجرة، وقبره بالمنستير حذو باب القصر الكبير يعرف بسيدي الإمام.

د. شيوخه:

طلب ابن يونس العلم في بداية حياته العلمية بصقلية حيث تتلمذ على أبي الحسن الحصائري القاضي وعتيق بن عبد الجبار الفرضي وأبي بكر بن أبي العباس وهم أعلام المدرسة المالكية الصقلية آنذاك، فأخذ عنهم الفقه كما درس الحديث مستفيدا من حلقات الفقه التي اعتنت ب "الموطأ" وكتاب "الملخص" لأبي الحسن القابسي ودرس كتاب "التهذيب" للبراذعي.

أبو الحسن الحصائري:

هو القاضي أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن الصقلي، المعروف بابن الحصائري، عالم، فقيه، فاضل، ورع، سمع من ابن أبي زيد القيرواني وغيره، أخذ عنه عتيق السمنطاري، وعتيق بن الفرضي.

أبو بكر عتيق بن عبد الجبار الفرضي الصقلي:

وهو أحد شيوخ ابن يونس كما ذكر ابن فرحون ومخلوف. ومما يؤكد ذلك أن ابن يونس إذا أورده قال: قال شيخنا أبو بكر عتيق بن عبد الجبار.

أبو بكر بن العباس:

فقيه صقلية وعالمها ومدرسها، تفقه عليه في المدونة، كان إماما في علم الفرائض، أخذ عنه ابن يونس وغيره من أهل صقلية.

وبعد انتقاله إلى القيروان أخذ عن شيوخها ومن بينهم:

أبو الحسن علي بن محمد القابسي 403هـ:

ويبدو أن ابن يونس لم يطل أخذه، لأن قدوم ابن يونس القيروان كان في آخر القرن الرابع، وأبو الحسن القابسي توفي 403هـ.

---

[1] - مدينة بإفريقية منسوبة إلى المهدي، بينها وبين القيروان مرحلتان، وهي على ساحل بحر الروم بدولة تونس.

[2] - "جمهرة تراجم الفقهاء المالكية"، القاضي عياض، ص.1132.

أبو عمران موسى بن عيسى الفاسي 430هـ:

ويذكر ابن يونس آراءه نقلا عن عبد الحق الصقلي في تهذيب الطالب، وكثيرا ما يصدر ذلك بقوله: وذكر أو حكي عن أبي عمران.

أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الخولاني 432هـ:

لم يذكر أحد ممن ترجم لابن يونس أن أبا بكر بن عبد الرحمن من شيوخه، لكن معاصرته للمؤلف في القيروان تدل على أخذه عنه.

ومما يدل على ذلك أيضا قول ابن يونس: "وظهر لي أن القياس ما قاله بعض شيوخنا" ويعني أبا بكر بن عبد الرحمن. أما عن تلاميذه، فإن مصادر ترجمة ابن يونس لم تسم أحدا من تلامذته، وهذا لا ينفي تتلمذ طلاب العلم على يديه وأخذهم عنه، لاسيما وهو العالم الفقيه الفرضي.

إن تأليف "الجامع لمسائل المدونة" كان تلبية لرغبة بعض طلاب العلم فقد قال في مقدمته: فقد انتهى إلى ما رغب فيه جماعة من طلاب العلم ببلادنا في اختصار كتب المدونة والمختلطة. وهذا ما يؤكد اهتمام طلبته بما أوتي من علم، وقدرة على التأليف تجسدت في وضع الكتاب الذي رغبه طلبته.

هـ. مكانته العلمية ومؤلفاته:

قال القاضي عياض: "وكان فقيها فرضيا حاسبا"[1].

وقال أيضا: "وعليه اعتماد طلبة الفقه بالمغرب للمذاكرة"[2].

وقال ابن خلدون في المقدمة عند كلامه على كتب الفقه المالكي: "وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب "النوادر" الذي اشتمل على جميع أقوال المذهب وفروع الأمهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه "الجامع على المدونة".

لقد احتل ابن يونس الصقلي مكانة عالية ومنزلة رفيعة لدى فقهاء المذهب المالكي حتى صار إماما من أئمته المشهورين، وعلما من أعلامه البارزين. وإن اعتماد فقهاء المذهب لكتابه أكبر شاهد على مكانة مؤلفه العلمية، وملكته الفقهية، إذ حرر فيه المذهب وهذبه، كما ذكر ابن عرفة الدسوقي ابن يونس من ضمن الذين تعبوا في تحرير المذهب وتهذيبه، وهو يقصد كلا من اللخمي

[1] - "جمهرة تراجم الفقهاء المالكية"، القاضي عياض، ص 1132.

[2] - المصدر نفسه، ص 1132.

الصفاقصي (ت 478هـ) ثم ابن رشد القرطبي (ت 530هـ) ثم المازري (ت536هـ)؛ قال: "لم يقع لأحد من المتأخرين ما وقع لهم من التعب في تحرير المذهب وتهذيبه وخص ابن يونس بالترجيح لأن أكثر اجتهاده في الميل إلى بعض أقوال من سبقه وما يختاره لنفسه قليل[1]".

ومما يدل على مكانة ابن يونس ما قاله الحطاب تعقيبا على من طعن في نقل ابن يونس لمسألة عن سحنون، قال: "إن إمامة ابن يونس وجلالته وثقته معروفة فلا ينبغي أن يطعن في قوله"[2].

إن الذين ترجموا لابن يونس ذكروا أنه ألف كتابين اثنين هما:

1- كتاب "الفرائض":

وهو مستقل غير جامع، قال القاضي عياض متحدثا عن ابن يونس: "ألف كتابا في الفرائض وشرحا كبيرا للمدونة[3]".

وقال ابن فرحون: ألف كتابا في الفرائض[4].

وقال مخلوف: "ألف كتابا في الفرائض وكتابا حافلا للمدونة أضاف إليها غيرها من الأمهات[5]".

وقال الحجوي الثعالبي: "ألف كتابا جامعا لمسائل المدونة والمختلطة[6]". فقد وصف بأنه كان فرضيا، وكان من الطبيعي أن يؤلف كتابا مستقلا في علم الفرائض، هذا العلم الذي برع فيه واشتهر به.

---

[1] - "حاشية الدسوقي على الشرح الكبير"، العالم العلامة محمد عرفة الدسوقي، على الشرح الكبير لأبي البركات سيدي أحمد الدردير، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاؤه، المجلد الأول، ص 22.

[2] - "مواهب الجليل لشرح مختصر خليل"، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمان المغربي المعروف بالحطاب الرعيني (ت 954هـ)، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، المجلد الخامس، ص436.

[3] - "ترتيب المدارك وتقريب المسالك"، الجزء الثاني، ص 783.

[4] - "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، لابن فرحون المالكي 799هـ، 2 الجزء الثاني ص 240.

[5] - "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، تأليف العلامة الجليل الأستاذ الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف المتوفى سنة 1360هـ، الجزء الأول، ص 111.

[6] - "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي 1291هـ/1376هـ، اعتنى به أيمن صالح شعبان مدير مركز تحقيق النصوص، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1995، الجزء الثاني. ص 245.

2 - الجامع لمسائل المدونة:

إن "المدونة الكبرى" التي رواها الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن الإمام ابن عبد الرحمن بن القاسم العتقي عن إمام دار الهجرة وأوحد الأئمة الأعلام أبي عبد الله الإمام مالك بن أنس الأصبحي رضي الله عنهم أجمعين؛ تعتبر من أعظم دواوين المالكية بعد "الموطأ"، لذا اتجه اهتمام المالكية إليها اتجاها كليا، فكم من حافظ لها عن ظهر قلب، وكم من شارح ومختصر ومعلق ومبسط لألفاظها، بل كانت يوما ما حين عز المذهب المالكي معيار العلم عند أهل العلم والفضل والسلطان، فلا يولى أحكام القضاء إلا من أجادها بل حفظها وأجاد مسائلها، وليس هذا غلواء، إنما هو اعتزاز ودلالة على تمكن هذا الفقه من واقع الناس ومعاشهم. لذا كان من بين أحسن وأفضل من اعتنى بالمدونة الفقيه العالم أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي، فقد اختصرها اختصارا رائعا غير مخل بمسائلها، وشرحها شرحا وافيا شاملا، جامعا لمسائلها المفرقة، موردا الآثار تدليلا، مقتبسا زيادتها ونظائرها الموزعة، شارحا ما أشكل من لفظها، باسطا لفظها تيسيرا، موجها له توجيها يتسق مع مضامينها، مبينا وجوهها وتأويلها من غير المدونة، ومفرقا بين متماثلاتها حتى لا يلتبس بعضها ببعض.

وعنوان الكتاب دال على ذلك "الجامع لمسائل المدونة والمختلطة وآثارها وزياداتها ونظائرها وشرح ما أشكل منها وتوجيهه والفرق بينه وبين ما شاكله". هو كما يظهر من عنوانه وكما يرى من يطالع الكتاب مغن عن غيره، بما حواه واشتمل عليه من مسائل المدونة. فهو نتاج عالم حاز السبق في العلوم، وشهرته في المذهب المالكي قديما وحديثا تغني عن ذكر ترجمته. وسبب تأليفه كما جاء في مقدمة كتابه: "أما بعد، يسرنا الله لهدايته، وهدانا إلى توفيقه، فقد انتهى إلى ما رغب فيه جماعة من طلبة العلم ببلدنا في اختصار كتب المدونة والمختلطة".

ومما يدل على أهمية الكتاب الكبيرة بين كتب الفقه المالكي الكثيرة اعتماده من طرف فقهاء المذهب. وفي هذا يقول الثعالبي: "وعليه اعتمد من بعده وكان يسمى مصحف المذهب لصحة مسائله ووثوق صاحبه[1]".

ويقول القاضي عياض: "عليه اعتماد الطلبة بالمغرب للمذاكرة2".

[1] - "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، ج. الثاني، ص 245.

[2] - "ترتيب المدارك وتقريب المسالك "، الجزء الثاني، ص 800.

ويقول ابن فرحون: "عليه اعتماد طلبة العلم للمذاكرة[1]".

وهو من الكتب المعتمدة في الفتوى، لذا لما سئل الفقيه السرقسطي عن الكتب المعتمدة في الفتوى أجاب: "إن المعتمد في ذلك: "الموطأ" و"المنتقى" و"المدونة" وابن يونس . يقصد جامعه . و"المقدمات" و"البيان" و"النوادر"[2].

ومما يؤكد أهمية الكتاب أيضا، أن العديد من الفقهاء نقلوا منه وأكدوا نسبته لابن يونس ومنهم القرافي[3] والونشريسي[4] والحطاب[5] وغيرهم.

2- أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأسدي توفي بعد سنة 430هـ:

المعروف بالبراذعي بالذال المعجمة وفي المدارك بالدال المهملة. ويكنى أيضاً بأبي سعيد وأبي القاسم. "من كبار أصحاب أبي محمد ابن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، وحفاظ المذهب المؤلفين فيه. له كتاب "التهذيب واختصار المدونة"، وحذف ما زاده أبو محمد. وقد ظهرت بركة هذا الكتاب على طلبة الفقه. وتيمنوا بدرسه وحفظه. وعليه معول أكثرهم بالمغرب والأندلس، على أن أبا محمد عبد الحق ألّف عليه جزءاً، فيما وهم فيه على المدونة. وأنا أقول: إن البرادعي ما أدخل ما أخذ عليه فيه، إلا كما نقله أبو محمد ابن أبي زيد. ومن تآليفه أيضاً كتاب "تمهيد مسائل المدونة" على

---

[1] - "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، الجزء الثاني، ص 240.

[2] - "محاضرات في تاريخ المذهب المالكي"، منشورات عكاظ الرباط، تأليف عمر الجيدي، ص103.

[3] - هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبد الرحمان بن عبد الله بن يلين الصنهاجي المصري، ولد سنة 626 هـ المتوفى سنة 684 هـ، كان ملما بعلوم شتى كالفقه والأصول واللغة والأدب وعلم المناظرة والطبيعيات وله معرفة بالتفسير.

[4] - أحمد بن يحي الونشريسي المعروف بأبو العباس الونشريسي834. 914 هـ، هو الونشريسي مولدا ومبدأ، التلمساني منشأ وأصلا، الفاسي منزلا ومدفنا، من علماء الجزائر الأعلام وفقهائها البارزين في القرن التاسع الهجري. اسمه الكامل أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي أو كما عرف نفسه في عدة وثائق له وعرفه معاصروه بأنه أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، وسمي بالونشريسي نسبة إلى موطنه الأصلي بجبال الونشريس. ولد حوالي سنة834 هـ بمنطقة الحجالوة بجبال الونشريس بلدية الأزهرية حاليا ولاية تيسمسيلت في الجزائر حيث حفظ القرآن وتعلم مبادئ العربية في كتاب قريته.

[5] - هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حسين الرعيني المعروف بالحطاب وأصله من المغرب ونسبه من المرابطين ونسله موجود بمنطقة قرومة الجزائر. ولد الشيخ بمكة المكرمة سنة (18رمضان 902هـ. أخذ الشيخ بعض العلوم، على يد والده الشيخ محمد بن عبد الرحمن الرعيني رحمه الله، وبعض اعلام عصره. كان رحمه الله على مذهب الامام مالك وله مؤلفات في فروع مذهب الامام مالك منها متممة الآجرومية في النحو، وقد نفع الله بها، كما نفع باصلها، فشرحت ودرست وعني بها. "مواهب الجليل في شرح مختصر الخليل في فروع المالكية" وهو كتاب يعنى بشرح مختصر لفقه المالكية. توفي الشيخ بطرابلس المغرب سنة(954هجرية) الموافق (1547م) وبني له مسجد قيل انه بعد مماته يعرف بمسجد الحطاب.

صفة اختصار أبي محمد وزياداته. ولأجل ذلك قصده بعض الطلبة ليسمعه منه. فلما أتم الصدر، أغلق كتابه وقال: قد سمعت الباقي على أبي محمد. وهل زدت فيه غير هذا الصدر، وكتاب "الشرح والتّمامات"، وكتاب "اختصار الواضحة". ولم تحل له رئاسة بالقيروان، وكان مبغضاً عند أصحابه، بصحبة سلاطينها الذين تبرأوا منهم. فكان مرفوض القول لديهم، ثقيل المكان عليهم. ويقال إن فقهاء القيروان أفتوا برفض كتبه، وترك قراءتها لتهمته لديهم، وسهل بعضهم في اختصاره المدونة وحده، لشهرة مسائله. ويقال إن الذي مكن تغيرهم عليه، أنه وجد بخطه في ذكر بعض بني عبيد، أو أسبابهم يتمثل في تفريطهم بهذا لبيت المشهور:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البناء **** وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

ويقال: بل سببه أنه ألف كتاباً في تصحيح نسب بني عبيد، وأنه كانت تأتيهم إمامة. ويقال: بل لحقه في هذا دعاء الشيخ أبي محمد، رحمه الله. إذ كان البرادعي أيام دراسته عنده، لا يزال يتسبب في الاعتراض عليه والتنبيه على أوهامه، والازدراء ببعض كلامه. فعز ذلك على الشيخ، وتفرغ عند خروجه إلى الدعاء عليه. فكانوا يرون أن ذلك لحقه منه، فلفظته القيروان ولم يستقر بها. فخرج الى صقلية، وقصد أميرها، فحصلت له مكانة. وعندها ألف كتبه المذكورة. وكان ممن له دنيا، ولم يبلغني وقت وفاته. رحمه الله"[1].

الخاتمة:

إن الحديث عن صقلية وأعلامها يفرض علينا الالتزام بتلك الحقبة الزمنية التي عرفت الحضور الإسلامي في الجزيرة، والتي تجاوزت بقليل 270 سنة ابتداء من سنة 212هـ، لمَّا وطأت أقدام الفاتحين أرض صقلية بقيادة أسد بن الفرات، رحمهم الله جميعا. ونظرا لما لقيه المسلمون من المصاعب والمشاق أثناء الفتح، ونظرا لطول المدة التي استغرقوها للسيطرة على كل الجزيرة، والتي تجاوزت السبعين سنة، فإن صقلية، بمدارسها الجديدة وعلمائها الذين نشأوا وتلقوا العلوم على أرضها؛ لم يكتب لها أن تصدر مصنفاتها الفقهية ومؤلفاتها الأدبية ودواوينها الشعرية... إلا مع نهاية القرن الرابع الهجري، علما بأن الوجود الإسلامي على الجزيرة استمر إلى حدود سنة 482هـ. وعليه فإن النتائج العلمية للمدرسة الصقلية لم تدم تلك المدة التي تسمح لها بتحقيق ما حققته المدرسة القيروانية، أو المدارس المغربية، أو الأندلسية. لأنها ما إن وصلت إلى أوجها واكتملت مدرستها، حتى أدركتها الصراعات الداخلية، والانقسامات المميتة التي أدت إلى شتات المسلمين

[1] - "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" للقاضي عياض، الجزء الثاني، ص 33.

وهوانهم أمام العدو، الذي كان يترصدهم، ويتحين الفرصة لاسترجاع الجزيرة الى سلطة ملة الكفر. فكان هذا الوضع أفضل فرصة للنورمان الذين سيطروا على الجزيرة فعملوا على الاستفادة من قدرات المسلمين العلمية والثقافية والحضارية... حتى تعلموا أسرار نجاح المسلمين ثم بدأوا في التضييق عليهم وتهجيرهم وقتل من بقي منهم على أرض الجزيرة. وكان ذلك سببا في فقدان وضياع الكثير من المكتبة العربية والإسلامية الصقلية.

لقد انفردت صقلية المسلمة بطابعها الخاص والذي نكاد لا نجد له مثيلا في تاريخ العالم الإسلامي. إن حالة جزيرة صقلية المسلمة تلك، جعلت البحث عن مظاهر الحركة العلمية بها، وعن أعلامها الذين ساهموا في المكتبة العربية والإسلامية من الصعوبة بمكان، نظرا لندرة المصادر العربية، ولانعدامها عند غير العرب الذين حاولوا طمس تلك الحقبة ومحوها من التاريخ. وكذلك لأن العالم الصقلي بفعل انتقاله إلى أمصار أخرى واندماجه فيها وتأثره بمدارسها، أصبح نسبه في غالب الحالات مرفوقا بالمدينة أو البلد الذي استقر فيه، وصار يلقب مثلا بالصقلي القيرواني كما حدث مع أبي يونس الصقلي القيرواني، لكونه استقر بالقيروان لمدة من الزمن، وكذا الشأن بالنسبة لأسر الصقليين الفاسيين.

ولعلي بهذه المساهمة المتواضعة، أكون قد ألقيت الضوء على تلك الفترة من تاريخ الجزيرة وبعض أعلامها، وإن كان الموضوع أوسع من أن يحصر في صفحات قليلة.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- القرآن الكريم.
- "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، محمد بن أحمد شمس الدين المقدسي، ت 386هـ. الطبعة الأولى 2002.
- "أعلام العرب 97 – الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام"، محمد عبد الغني حسن، وزارة الثقافة – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1971.
- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" 581/578هـ، محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، حررها وقدم لها: علي كنعان/ سورية، الطبعة الأولى 2008.
- "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"، القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي ت544هـ، ضبطه وصححه محمد سالم الهاشم، الطبعة الأولى 1998، دار الكتب العلمية. بيروت.
- "الجامع لمسائل المدونة"، المسمى مصحف المذهب المالكي للإمام العلامة ابن يونس ت452هـ، إعداد حمدان بن عبد الله الشميري، الطبعة الأولى 2013.
- "جمهرة تراجم الفقهاء"، القاضي عياض، ترتيب وتهذيب الدكتور قاسم علي سعد، الطبعة الأولى 2002، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث. دورة الإمارات العربية المتحدة، إمارة دبي.
- "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، ابن فرحون المالكي ت799هـ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
- "رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية – عصر الحروب الصليبية"، تأليف ابن جبير، تحقيق د. حسين نصار.
- "حاشية الدسوقي على الشرح الكبير"، للعلامة شمس الدين الشيخ محمد عرفة الدسوقي، ت1230هـ. طبع بدار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- "سير أعلام النبلاء"، تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت748هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط. محمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الأولى (1985/1405).
- "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، محمد بن محمد بن عمر قاسم مخلوف ت1360هـ،

المحقق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2003.

- "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، محمد الحسن الحجوي الثعالبي، مطبعة إدارة المعارف بالرباط، 1345/1340.
- "فتوح البلدان". أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، دار النشر مؤسسة المعارف، 1987، تحقيق عبد الله أنيس الطباع.
- "الكامل في التاريخ"، علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري عز الدين أبو الحسن ت630هـ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، عدد المجلدات إحدى عشرة، الطبعة الأولى، 1987/1407.
- "محاضرات في تاريخ المذهب المالكي"، الدكتور عمر الجيدي، منشورات عكاظ، الرباط.
- "المسالك والممالك"، أبي القاسم بن حوقل، ت367هـ.
- "مشاهير الرحالة العرب"، تأليف كمال بن محمد الريامي، كنوز للنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة الأولى 2013.
- "المعلم بفوائد مسلم"، للإمام المازري، تقديم وتحقيق فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الجزء الأول، الطبعة الثانية.
- "مواهب الجليل لشرح مختصر خليل"، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي المعروف بالحطاب الرعيني، ت954هـ دار الكتب العلمية، بيروت.
- "الوافي بالوفيات"، صلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدي، ت764، تحقيق واعتناء أحمد الأرنأوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي.

المو اقع الإلكترونية المعتمدة:

- موقع عصير الكتب.
- موقع المكتبة الوقفية للكتب المصورة.
- موقع مكتبة المصطفى الإلكترونية.
- موقع مكتبة عين الجامعة.